﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: 64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين التّعجُّبِ من إرسالِ الرّسولِ، وبين نجاةِ مَنْ آمنَ، وإهلاكِ من كَفَرَ

لمّا "نسبوه أوّلًا إلى الضَّلال وهو قد يكون خطأً عن ذهولٍ ونحوه، فأقام لهم الدَّليل على أنَّه على الصَّواب، أخبرَ أنَّه لم يتسبَّب عن ذلك إلّا تصريحَهم بما لوَّحوا إليه أوّلًا بالضَّلال من التَّكذيب، فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾"[1]، فناسبَ ذِكرُ عاقبةِ المؤمنين وسوء مآلِ المكذِّبين، بعد بيانِ إقامةِ الحجَّةِ عليهم، لبيانِ عدل اللّه مع عبادِه في عقابِه وإنجائه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: (فلك) أصلٌ يدلُّ على استدارةٍ في شيءٍ، الفَلَك: مدارُ النُّجوم، والجمعُ أفلاكٌ، وفَلَكُ كلِّ شيءٍ: مستدارُهُ، وفَلَكُ البحر: موجهُ المستديرِ المتردِّد، والفُلك: السَّفينة، تذكَّر وتؤنَّثُ وتقع على الواحد والاثنين والجمع، ولعلَّها تسمَّى: فُلكًا؛ لأنَّها تدارُ في الماء[2].

2) ﴿عَمِينَ﴾: (عمي) أصلٌ يدلُّ على سَتْرٍ وتغطيةٍ، من ذلك العمى: ذهابُ البصرِ من العينين كلتيهما، ورجلٌ عمٌ؛ إذا كان أعمى القلبِ، ورجلٌ عَمي القلب، أي: جاهلٌ، والعَمَى: ذهابُ نظر القلب، وذُمَّ العَمَى في القرآن نحو قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: 18]، وقوله: ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ [المائدة: 71]، بل لم يعدَّ افتقادُ البصر في جنب افتقادِ البصيرة عَمًى، حتَّى قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46][3]، وقوله تعالى: ﴿عَمِينَ﴾ جمع

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/431، وينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (فلك).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عمى، عمي).

عمٍ جمع سلامةٍ، وهو صفةٌ على وزنِ فعِل مثلِ: أشرٍ، ويريدُ عمى البصائرِ عَميت قلوبُهم عن معرفةِ اللّه تعالى[1].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

جَـزاءُ الإيـمـانِ نـجـاةٌ وتـمـكينٌ، وجَـــــزاءُ الـكُـفـرِ إغـراقٌ واسْـتِـئـصـالٌ للمُكذِّبين

يخبرُ اللّهُ تعالى عن قومِ نوحٍ أنَّهم لم يصغوا لنداءِ الحقِّ، فكذَّبوا نوحًا عليه السلام، وتمادوا في تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلّا قليلٌ، فكانَ العقابُ إغراقَهم بالطّوفان، بسبب كفرِهم وتماديهم في ضلالهم وشركهم، فهم كانوا قومًا عُميًا عن الحقِّ، لا يبصرونَهُ، ولا يهتدون له[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الفاءِ) في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

المُسارعةُ إلى التَّكذيبِ بلا تَرَوٍّ دَالٌّ على الغُلُوِّ في الغَطْرسَةِ

افتتحَ قولَه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بالفاءِ للدَّلالةِ على أنَّ تكذيبَ قومِه له وقعَ بعد دعوتِه بلا مهلةٍ، فالفاءُ تدلُّ على التَّعقيبِ، فالمعنى: أنَّ التَّكذيبَ وقع "عقب سماعِ قول نوحٍ، فعطف على كلامه بالفاء"[3]، وهذا يدلُّ على أنَّهم لم يتروَّوا، ويفقهوا ما دعاهم إليه، بل بادروا إلى تكذيبِه ورفض دعوتِه تشبثًا بآلهتهم الزّائفة.

والفاءُ هي الفصيحةُ؛ لأنَّها وقعت جوابَ شرطٍ محذوفٍ، أي: إذا أردتَ أن تعلمَ مغبَّةَ أمرِهم؛ فقد كذَّبوه[4]، ولا تعارضَ بين أن تكون فصيحةً في تقدير شرطٍ محذوف، وبين إفادتِها التَّعقيب، فهما معنيانِ متآلفانِ، تقديرًا وإفادةً.

بَلاغةُ الإيجازِ في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ﴾ إيجازٌ بليغٌ، فقد طوى أحداثَ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 113، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(2) الزحيلي، المنير: 8/255.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/375.

القصَّة، وانتقلَ بعد ذكرِ التَّكذيبِ إلى ذكر النَّجاةِ، تعجيلًا بذكر مآل التَّكذيبِ، فإنَّ تكذيبَهم كان سببًا في نزول العذاب وتحقُّق النَّجاة لنوحٍ ﷺ ومن معه؛ لأنَّ الغرضَ من سَوق القصصِ إنَّما هو الاتِّعاظ بها، فذكرُ ما لاقى القومُ به الدَّعوةَ من التَّكذيب، ثمَّ الانتقالُ إلى المصيرِ؛ فيه من التَّخويفِ لمن يسمعُ القصَّة من المشركينَ، عسى أن يتَّعظوا، ويحدثُ لهم ذكرًا.

تَوجِيهُ الأنظارِ إلى مُنتهَى الحدَثِ، إنشاءٌ للعِبَرِ، وتحريكٌ للفِكَرِ

نُكتةُ التَّصريحِ بالتَّكذيب، في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ﴾ صرَّحَ بتكذيبِ قومِ نوحٍ ﷺ له لاستمرارِهم بالتَّكذيبِ مع الإصرارِ[1]، فهم قد أطبقوا "على تكذيبِهِ في دعوى النُّبوَّة، وما نزل عليه من الوحيِ الذي بلَّغه إليهم، وأنذرهم بما في تضاعيفِهِ، واستمرّوا على ذلك هذه المدَّة المتطاولةَ بعد ما كرَّر - ﷺ - الدَّعوةَ عليهم مرارًا؛ فلم يزدهم دعاؤُه إلّا فرارًا حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾"[2]، فناسبَ ذكرَ التَّكذيب لطول مدَّة دعوتِهِ لهم.

طـولُ مُـدَّةِ الـتَّـكـذيـبِ تَستدعي ذِكرَه، وجـعْـلَـه عِـلَّـةَ الإغراقِ

سِرُّ إيثارِ الإضْمارِ على الإظهارِ، في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

وضع الضَّميرَ موضعَ المظهرِ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، فلم يقل: (فكذَّبه الملأُ، أو قومه)، وذلك ليدلَّ عليهم جميعًا، فقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: الملأُ والذين تابعوهم من دونِهم[3]، فدلَّ الضَّمير على جميعهم، فلو قالَ: (فكذَّبه)؛ لاحتملَ أنَّ المكذِّبين الملأ وحدَهم دون القومِ كلِّهم، ولو صَرَّحَ بالقوم، فقال: (فكذَّبه قومه)؛ لطالت العبارةُ مع إمكانِ الإيجاز، فعدل عن التَّعبير بالظّاهر ليشملَ الجميعَ مع الإيجازِ.

الإضْمارُ إيجازٌ ظاهرٌ، واختزالٌ باهرٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/392.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236 - 237.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/431.

دلالة (الفاءِ) في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾

النَّجاةُ أعْقَبَتِ التَّكذِيبَ

قوله جلَّ شأنه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ عطف (أنجيناه) على (كذَّبوهُ) بالفاءِ الدّالَّة على التَّرتيب والتَّعقيب؛ لأنَّ النَّجاة وقعت بعد التَّكذيب، فهي تفيدُ التَّعقيب، «وهو تعقيبٌ عرفيٌّ؛ لأنَّ التَّكذيب حصل بعده الوحيُ إلى نوحٍ بأنَّه لن يؤمنَ من قومهِ إلّا من قد آمَنَ، ولا يُرجى زيادةُ مؤمن آخر، وأمره بأن يدخلَ الفُلك، ويحملَ معه من آمنَ إلى آخرَ ما قصَّه اللّهُ في سورةِ هودٍ»[1].

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالإنجاءِ، دون الإنقاذِ، في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

النَّجاةُ تَخليصٌ تامٌّ، مع ارتفاعٍ مَعْنويٍّ، يُعْلِي المقامَ

عبَّر النَّظم عن نجاةِ نوحٍ عليه السلام في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ بالنَّجاة دون الإنقاذِ، لدلالةِ النَّجاة على الخلوصِ والانفصالِ ممّا حوله، والإنقاذُ هو: التَّخْليصُ من ورْطَةٍ، واستخلاصُ الشَّيء في قوَّة من بين ما لا يُرضَى حوزهُ إيّاه، وأنقذته منه: خلصتهُ. وفرسٌ نقيذٌ: أُخذ من قومٍ آخرين[2]، أمّا النَّجاةُ فأصلها: الانفصالُ من الشَّيءِ، وخُلوص الجرمِ، أو نفاذُه مرتفعًا من بين ما يحيطُ به أو يجاوره، والنَّجاةُ مِنَ الأرض هي المكانُ المُرتفع المنفصلُ بارتفاعهِ عمّا حوله، ولا يَعْلوها سَيْلٌ[3]، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92]، أي: نلقيك على نجوةٍ من الأرضِ، وهي المكانُ المرتفعُ[4].

نُكتةُ إسْنادِ الإنجاءِ إلى ضَميرِ العَظَمةِ في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

مُناسبةُ عَظَمةِ الإنـــجـــاءِ، لعَظَمةِ المُنْجِي

أسندَ الإنجاءَ إلى ضميرِ العظَمَةِ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾، ولم يقل: فأنجاهُ اللّهُ، والمعنى: "﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ بما لنا من العظمَةِ من أهلِ الأرضِ كلِّهم ومن عذابنا الذي أخذناهم به"[5]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نقذ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نجو).
(4) الواحدي، البسيط: 11/306، والماوردي، النكت والعيون: 2/449.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/431.

والإنجاءُ من العذابِ العظيمِ يقتضي أن يكون إنجاءً عظيمًا؛ فلذا نسبهُ إلى اللهِ تعالى بضميرِ العظمةِ.

تَوجيهُ المتشابهِ اللَّفْظِيِّ بينَ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ و﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

تناول سياقُ قصَّة نوحٍ عليه السلام في سورة يونسَ نوحًا وحسب من غير ذكرِ المجادلةِ مع قومهِ، فكلُّ ضمائرِ المتكلِّم كانت لنوحٍ، ولم ينقل النَّصُّ ما قاله قومه، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: 72 - 73]، فكان السّياق في الإنعامِ على نوحٍ؛ لذا أتبعَ النَّجاةَ بقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾، وكان من تمامِ الإنعامِ أن يذكرَ النَّجاة على وجه المبالغة، فجاءت بصيغة التَّضعيف، ولم يكن السّياق في سورة الأعراف للإنعامِ، فجاءَ بالإخبار عن النَّجاة بلا مبالغة.

ناسبَ سِياقَ الإخبارِ عنِ النَّجاةِ قولُه: (فأنجيناه)، وناسبَ سِياقَ الإنعامِ قولُه: (فنجّيناه)

نُكتةُ اسْتِعمالِ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، دونَ (مَنْ):

في قولهِ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ عبَّر عن النّاجينَ معهُ بالاسمِ الموصول، فلم يقل: (والمؤمنين معه)؛ لأنَّهم قومٌ معروفون معهودون، وهم من اتَّبعهُ، وآمنَ به، وفي ذلك تكريمٌ لهم، ولم يعبِّر بلفظِ (مَن) وهو وإن كان موصولًا إلّا أنَّ دلالتهُ على العمومِ أرسخُ، فأتى بالاسمِ الموصولِ بالَّذين دون غيرِها لبيانِ خصوصيَّتهم النّاشئة عن قلَّتهم في وسط المكذِّبين، فخصَّهم بصفةِ المعيَّة والإنجاء لبيانِ فضلهم.

الذين آمنوا مع نُوحٍ، قومٌ مخصُوصُونَ بالكرامةِ والتَّشْريفِ

اخْتِيارُ الاسمِ الموصولِ (مَن) في سورة الشّعراء:

وفي سورةِ الشُّعراءِ جاءَ استعمالُ (من)؛ ذلك أنَّ سياقَ سورةِ الشُّعراءِ يناسبه (مَن)، قال تعالى: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشّعراء: 118 - 119]، فلمّا قالَ في الآية السّابقة: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ﴾، ناسبَ أن يُتبعه في

إنجاءُ الله رحمةٌ وتلطُّفٌ، والله لا يخذلُ مَنِ التجأَ إليه ودَعاه

اللّاحقة بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ ليكونا على نسقٍ واحدٍ، ولكي لا يُفهم - إذا استُعمل (الّذين) دون (مَنْ) - أنَّ الّذين نجّاهم الله غيرَ الَّذين طلب تنجيتَهم نوحٌ عليه السلام.

بَلاغةُ الإيجازِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾:

جاء قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ خاليًا تقييدهم بالإيمان، كما في سورة الشُّعراءِ ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ وذلك لأنَّ قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾ يتعلَّق به قوله: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ والتَّقدير: "استقرّوا معه في الفلكِ، وبهذا التَّعليق عُلِم أنَّ الله أمرهُ أن يحملَ في الفُلك معشرًا، وأنَّهم كانوا مصدِّقين له، فكان هذا التَّعليقُ إيجازًا بديعًا"[1]، فما ركِب معه غير مَن اتَّبعه، ولذلك لم يأتِ هذا التَّقييدُ في الآيةِ الثّانيةِ في سورةِ الشُّعراءِ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ لهذا السَّببِ، واكتفاءً بالآيةِ السّابقة، وبهذا أغنى ذلك عن التَّصريحِ بالإيمان إيجازًا.

التَّقابُلُ اللَّفْظِيُّ في ذِكْرِ إغراقِ المُكذِّبين، دالٌّ على نجاةِ المؤمنين

وجاءَ ما يدلُّ على صفةِ الإيمانِ في التَّقابلِ اللَّفظيِّ، حيثُ قابلتِ الآيةُ بينَ الإنجاءِ والإغراقِ، فالإغراقُ كان للمُكذِّبين المذكورين في قولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾، فدلَّ هذا التَّقابلُ على أنَّ الذين معهُ هم من المؤمنينَ، وهذا من إيجاز القصرِ.

نُكتةُ تَقديمِ الإنجاءِ على الإغْراقِ:

العِنايةُ بالمؤمنين وتَعجيلُ المسَرَّة للسَّامعين، تَستدعِي تَقديمَ الإنجاءِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ قدَّمَ ذكرَ الإنجاءِ على الإغراقِ، وكان المتبادرُ أن يذكرَ العقابَ ليتبيَّنَ من أيِّ شيءٍ أنجاهم؛ لكنَّ النَّظمَ قدَّمَ ذِكْرَ الإنجاءِ للمسارعة بالإخبارِ بهِ والإيذانِ بسبق الرَّحمة[2]، و"للاهتمام بإنجاء المؤمنينَ وتعجيلًا لمسرَّة السّامعين من المؤمنينَ بأنَّ عادةَ الله - إذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/19، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/85.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237، والآلوسي، روح المعاني: 4/392.

أهلك المشركين – أن ينجيَ الرَّسولَ والمؤمنين؛ فلذلك التَّقديمُ يفيد التَّعريضَ بالنِّذارة، وإلّا فإنَّ الإغراقَ وقع قبل الإنجاء؛ إذ لا يظهر تحقُّقُ إنجاءِ نوحٍ ومن معه إلا بعدَ حصول العذاب"[1].

بَراعةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾، دونَ السَّفينةِ:

استُعْمِلَ الفُلكُ باعتبارِ حمْلِ البَشريَّةِ النَّاجيةِ، ودَورانِها بحثًا عنِ الاسْتِقرارِ

قولِه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، الفلك هو السَّفينةُ، وهي في الاستعمالِ القرآني تُطلقُ على ما كان لها مالكٌ وصاحب، أمّا الفُلكُ؛ فهو مُستعملٌ في القرآنِ باعتبارِ الوظيفةِ العامَّة، لا باعتبارِها مملوكةً لشخصٍ دون آخر، وكذلك باعتبارِ البحرِ فُلكًا لها، فهي تدور فيهِ، فعند إطلاقِ الفُلك في القرآنِ لا يُرادُ بها فُلكًا خاصًّا بل عامًّا، والفُلك الذي صنعه نوحٌ عليه السلام ليس خاصًّا به، بل هو لعمومِ البشريَّة، وسيدورُ في الأرضِ.

وقد يسألُ سائلٌ عن قولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: 15]؟ لماذا سمَّى الفلك هنا بالسَّفينة؟ وذلك لتنزيلِ المؤمنين منزلةَ الشَّرفِ والتَّكريم، فهم أصحابُ السَّفينة، فعاملَ الفُلك معاملةَ السَّفينة لتكريمِ مَنْ رَكِبَها، فأصبحوا أصحابَها بعد النَّجاةِ، أمّا عندما كان يصنعها؛ فوصفها بقوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: 38].

دَلالةُ عطْفِ: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ على ما قَبْلَها:

بيانُ النِّهاياتِ للفرقِ المتضادَّةِ، مِهْمَازُ اعْتِبارٍ

عطفُ الإغراقِ في قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ على نجاةِ نوحٍ عليه السلام ومن معه في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ لبيان مصير الفئتين، وإظهارًا لنهاية القصَّة بذكر ما حلَّ بكلِّ فريقٍ.

نُكتةُ إيثارِ ذِكْرِ الإغْراقِ على الإهلاكِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ آثرَ ذكرَ الإغراقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197 - 198.

دونَ الإهلاكِ، وذلك للتَّصريحِ باسم العقابِ الذي نالهم؛ فالإهلاكُ عامٌّ، له أسبابٌ كثيرةٌ، الغرقُ واحدٌ منها، فخصَّ ذكرَ الإغراق للتَّصريحِ بنوعِ العذابِ، وهو عاقبةٌ شديدةٌ بليغةٌ.

الإهـلاكُ عـامٌّ، والإغـراقُ نَـوعٌ مـنـه، وذُكِـرَ للتَّصْريحِ بكيفيَّةِ إهْلاكِهم

بَلاغةُ الطِّباقِ المعنويِّ، بين الإنجاءِ والإغراقِ:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ طباقُ إيجابٍ، بين الفعلين المتضادَّين ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ و﴿وَأَغْرَقْنَا﴾، وفي ذلك جمالٌ معنويٌّ، وتأكيدُ المعنى بذكرِ النَّقيضين تنبيهٌ ولفتٌ لانتباه السّامع لاختلاف المآلِ لمن آمنَ، واتَّبع الرُّسل، ومَن أبى، واستكبر.

بيانُ المعنى بذِكْرِ نقيضِهِ، تَنبيهٌ وتَحذيرٌ

نُكتةُ إسْنادِ الإغراقِ إلى ضَميرِ العَظَمةِ، في قولِه: ﴿أَغْرَقْنَا﴾:

أُسنِدَ الإغراقُ إلى ضميرِ التَّعظيمِ في قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، ولم يقل: (وأغرقتُ الذين كذَّبوا)، ولا: (وأُغرِق الذين كفروا)؛ لأنَّه أرادَ تعظيمَ ذلك الجزاءِ، فهو إغراقٌ عظيمٌ حدثَ بما تقتضيه عظمةُ الله تعالى اللّائقةُ به، وقد كان كذلك، فما زالَ طوفانُ نوحٍ في ذاكرةِ البشريَّةِ وملْءِ صفحاتِ التّاريخِ.

الإغْـراقِ مُعجزةٌ كاسِحةٌ، نُقِشتْ في ذاكرةِ التّاريخِ البشريِّ

غَرَضُ وضْعِ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، في قولِه: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾:

عبَّر عن المُكذِّبين بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ دونَ الضَّميرِ وهو ما يقتضيه الظّاهر، فلم يقل: (وأغرقناهم)، فأظهر الموصولَ للإعلام بعلَّةِ الغرقِ، وهو التَّكذيبُ[1]، فعبَّر بالموصول قصدًا لتضمينِ الصِّلة علَّةَ الإغراقِ، والمعنى: "وأغرقنا من كذَّبَ بآياتنا بالطّوفان بسببِ تكذيبهم"[2]، وهذا تَكرارٌ في بيانِ الحُججِ، وذكر سببِ الإغراقِ، وغرضُه أخذُ العبرةِ والاعتبارِ.

تَـكـرارُ إقـامـةِ الـحُـجَّـةِ تثبيتٌ للعِبْرةِ، وتأْييدٌ للاعتبارِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/85.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 8/191.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، دونَ الصَّريحِ (المكذّبين):

ذَمُّ قَـومِ نُـوحٍ كـان لإضْـرارِهـم على التّكذيبِ، لا لمجرَّدِ التَّكذيبِ

عبَّرَ بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآۚ﴾ للدَّلالَةِ على معيَّنٍ مع الدَّلالة على أنَّ تكذيبَهم كان مستمرًّا، والاستمرارُ يشعرُ بالإصرارِ، فمعنى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ "أي: استمرّوا على تكذيبها، وليس المرادُ بهم الملأ المتصدّين للجوابِ فقط، بل كان من أصرَّ على التَّكذيب منهم ومن أعقابهم"[1]، فالمرادُ من الموصولِ وصلتِه بيانُ أنَّهم اتَّصفوا بالتَّكذيبِ واستمرّوا عليه، وليس المرادُ بيانَ أنَّهم متَّصفون بالتَّكذيب فحسب.

فائِدةُ ذِكْرِ التّكذيبِ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾، لا التّكذيبِ بنُوحٍ:

التَّكذيبُ بالآياتِ هو سببُ الإغراقِ، لا تكذيبُ الأشخاصِ

عبَّرَ عن تكذيبِ قومِ نوحٍ بالآياتِ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ وهذا "يقتضي أنَّ نوحًا ﷺ كانت له آياتٌ ومعجزاتٌ"[2]، وإنَّما عبَّر هنا عن تكذيبِهم بالآياتِ، وليس عن تكذيبِهم بنوحٍ ﷺ لبيانِ شناعةِ تكذيبِهم؛ فهم قد كذَّبوا الآياتِ الَّتي هي مظنَّةُ التَّصديقِ، وهي لغيرهم مناراتُ هدايةً وبراهينَ علمٍ؛ فالتَّكذيبُ المقيَّد بالآياتِ هو أشدُّ من التَّكذيبِ المطلق، أو تكذيبِ المرسلِ، فكان تكذيبهم استكبارًا عن أدلَّة العلم، ويُشيرُ إلى أنَّ تكذيبَ الآياتِ كان السَّببَ المُعتبرَ الَّذي آلَ بهم إلى الإغراقِ دونَ تكذيبِهم له؛ لأنَّ تكذيبَ الآياتِ دليلٌ على الاستكبارِ والإصرارِ على الكفرِ.

فائِدةُ إضافةِ آياتٍ إلى ضَميرِ العَظَمةِ، في قولِه: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾:

آيـاتُ العظيمِ معلومةُ الوُرودِ، ولا يَكفرُ بها إلَّا جَحُودٌ لَدودٌ

أضافَ الآياتِ إلى ضميرِ العظمةِ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ إشعارًا بأنَّ هذه الآياتِ "هي من الظُّهورِ في حدٍّ لا خفاء به؛ لما لها من العظمةِ بالنِّسبةِ إلينا"[3]، وتعظيمُ هذه الآياتِ يشير إلى عِظم جرمِهم؛ إذ إنَّها آياتٌ لا ينبغي لها أن تُكذَّبَ؛ لأنَّها واردةٌ من اللهِ ﷻ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237، والآلوسي، روح المعاني: 4/392.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/85.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/431.

مُوجِبُ فَصْلِ جُملةِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عمَّا قبلَها:

عَمَى البَصائرِ، عِلَّةُ التَّكذيبِ بالآياتِ

جاءتِ الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾ مفصولةً عمّا قبلَها؛ لبيان أنَّ تكذيبهم لم يكن إلّا لعمى بصائرِهم[1]؛ إذ هو ما حال دون إيمانِهم واعتبارِهم بالآياتِ، فالجملةُ المفصولة "تتنزَّل منزلةَ العلَّةِ لجملة (أغرقنا) كما دلَّ عليه حرفُ (إنَّ)؛ لأنَّ حرفَ (إنَّ) هنا لا يُقصدُ به ردُّ الشَّكِّ والتَّردُّد؛ إذ لا شكَّ فيه، وإنَّما المقصودُ من الحرفِ الدَّلالة على الاهتمامِ بالخبر، ومن شأنِ (إنَّ) - إذا جاءت للاهتمام - أن تقومَ مقامَ فاءِ التَّفريعِ، وتفيدَ التَّعليلَ وربْطَ الجملة بالَّتي قبلَها"[2].

فائدةُ ذِكْرِ ﴿كَانُواْ﴾، في اتِّصافِ الكَفرةِ بالعَمَى القَلْبيِّ:

عَمَى البصيرةِ راسِخٌ، بِسببِ اكتِسابِ الجوارحِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾، قرنَ النَّظمُ الإخبارَ عن اتِّصافِ قومِ نوحٍ بالعمى بالفعل ﴿كَانُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾، ولم يقل: (إنَّهم قومٌ عَمون)؛ للدَّلالة على أنَّ العمى تراكمَ عليهم عبرَ القرونِ، حتَّى أصبح جزءًا من سلوكِهم، وفي ذلك إيماءٌ إلى عراقتِهم في الضَّلال، وأنَّهم لم يعموا عن الحقِّ اليوم، بل هم مستمرّون عليه، لا ينفكّون عنهُ مع تطاولِ الأيّام، وتعاقبِ الأزمان، وهذا التَّعبيرُ أبلغُ في كونِ نوحٍ ﷺ قد استنفدَ طرقَ الهدايةِ معهم، لكنَّهم عاندوا بسببِ ما رانَ على قلوبِهم من الاكتسابِ والاجتراح.

دَلالةُ ذِكْرِ ﴿قَوْمًا﴾، ووصْفِهِم بالعَمَى:

اجْتِماعُ البصائرِ على العَمَى، كتجمّعٍ منْ رمَى إذْ رمَى

ذكرَتِ الآيةُ لفظَ (قَوْم) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾، ولم يقل: (إنَّهم كانوا عمين)؛ حيثُ إنَّ وصفَهم بكونِهم قومًا يدلُّ على أنَّهم كانوا في كفرِهم وعنادِهم مجتمعين قائمين، لما في لفظِ القومِ من دلالةٍ على أنَّ جماعةً ما يقومون قومةً واحدةً، إشارةً

(1) المراغي، تفسير المراغي: 8/191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198، وينظر: الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298.

على صلابتِهم ووحدة كلمتِهم، ووصفَ هؤلاءِ القومَ بعمى البصيرةِ إشارةً إلى أنَّهم في إجماعهم واتِّفاقهم كانوا في ضلالٍ وجهالةٍ، فإنَّ الإجماعَ يدلُّ على قوَّةِ الاتِّفاق، فضلالهُم كان في الغاية القُصوى.

سِرُّ تفَرُّدِ هذه الآيةِ بوصْفِ قومِ نُوحٍ، بقولِه: ﴿عَمِينَ﴾:

ناسبَ تفرُّدَ قومِ نُوحٍ بطُولِ الزَّمانِ، تفرُّدُ هذا اللَّفظِ في القرآنِ

وصف اللهُ تعالى قومَ نوحٍ بالعمى بصيغةِ الصِّفةِ المشبَّهةِ (عم) بوزنِ فعٍ مثل أشِرٍ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَوْمًا عَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على ثبوت هذا الوصفِ فيهم، وجمعَها جمعًا سالمًا؛ لأنَّه أرادَ عمى القلب، وليس عمى العين، فلذا لم يقل: (عُميًا) بجمع التَّكسيرِ، فلمّا أرادَ الصِّفةَ الَّتي تدلُّ على عمى القلبِ والبصيرةِ؛ عدلَ إلى جمع المذكَّر السّالم[1].

وهذا اللَّفظُ من الأفرادِ في القرآنِ الكريمِ، وإنَّما تفرَّد هذا الموضعُ بهذا الوصفِ؛ لأنَّ قومَ نوحٍ ﷺ قد لبث فيهم نبيُّهم زمانًا طويلًا، فكان حريًّا بهم أن يؤمنوا ويفقهوا عنه، ولمّا لم يبصروا الآياتِ مع تطاولِ الزَّمانِ؛ دلَّ على أنَّ عمى القلب والبصيرةِ وصفٌ راسخٌ فيهم، فجاء النَّظم القرآنيُّ بالصِّفة المشبَّهة للدَّلالةِ على ذلك. ولمّا كانوا متفرِّدين بهذا الرُّسوخِ في العماوةِ عن الحقِّ، وفي طولِ زمان الصُّدودِ والتَّكذيب، ناسبَ أن يوصفوا بلفظٍ متفرِّدٍ ذكرُه في القرآنِ؛ ليُناسبَ التَّفرُّدُ التَّفرُّدَ.

تَوجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ في قولِه: ﴿عَمِينَ﴾:

تدلُّ قراءةُ (عامِينَ) على ابتداءِ العَمَى، وتدلُّ (عَمين) على رُسوخِ العَمَى

قرئَ في قوله تعالى: ﴿عَمِينَ﴾: (عامينَ)، وهي قراءة شاذَّةٌ[2]، على صيغة اسمِ الفاعل الدّالَّة على الحدوث، وصيغةُ اسم الفاعلِ لا تدلُّ على رسوخِ هذا الوصفِ فيهم، كما تدلُّ عليه القراءةُ الأخرى الَّتي هي قراءةُ الجماعةِ المتواترة: ﴿عَمِينَ﴾ فهي على صيغة الصِّفة المشبَّهة الدّالَّة على ثبوتِ الوصف فيهم، "والفرقُ بين العَمي والعامي،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/85.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/115.

أنَّ العمي يدلُّ على عمًى ثابتٍ، والعامي على عمًى حادثٍ، ولا شكَّ أنَّ عماهم كان ثابتًا راسخًا"[1]؛ لأنَّ (العمي) لعمى البصيرةِ، وهو ثابتٌ، و(العامي) لعمى البصرِ، وهو حادثٌ، فإنَّ (فَعِلٌ) تدلُّ على الثُّبوت، لكونِها صفةً مشبَّهة[2].

وهذا الفرقُ بين (العمي) و(العامي) يحتاجُ إلى توجيهٍ على ضوءِ القراءتين، وتوجيهُ ذلك: أنَّ قراءةَ (عامينَ) أشارتْ إلى ابتداءِ الدَّعوةِ من نوحٍ ﷺ فكانوا وقتئذٍ قومًا عامين، ويكون قولُه: ﴿كَانُواْ﴾ محمولًا على ما كان منهم ابتداءً، وقراءةُ الجمهورِ تُشيرُ إلى ما استقرَّ إليه حالُهم بعد ذلك، وهو الذي أوقعَهم في الإغراقِ المبين، ويكون غرضُ القراءتينِ: التَّنبيهَ والتَّحذيرَ من مشابهتِهم في الاستمرارِ على الطُّغيان والاستكبارِ، فما بدأ فعلًا حادثًا ينتهي وصفًا راسخًا، وهو ما يُؤكِّد أنَّ اللّٰه لم يخلق أحدًا عميًا جبلَّةً، بل هو سلوكُ الاكتسابِ والاجتراحِ مع تطاولِ الأزمانِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الفُلْكُ) و(السَّفينةُ):

السَّفينةُ في القرآنِ ما كان لها رُبّانٌ، والفُلْكُ باعتبارِ الوَظيفةِ والامْتِهانِ

بعد التَّأمُّل في مواضعِ الكلمتين في القرآن الكريم يتبيَّنُ أنَّ استعمالَ السَّفينةِ في التَّعبيرِ القرآنيِّ لمن كان لها مالكٌ وصاحبٌ، كقوله تعالى: ﴿إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: 71]، فهي هنا لها أهلٌ، وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: 79] فهي لمساكينَ، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: 15].

أمّا استعمالُ الفُلكِ؛ فهو باعتبارِ الوظيفةِ العامَّة، لا باعتبارِها مملوكةً لشخصٍ دون آخرَ، كقولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/299، والزمخشري، الكشّاف: 2/115.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/432 - 433.

مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الحج: 65]، وجاء الفُلك في سائر مواضع الامتنان على العبادِ بتسخيرِ الفُلك والبحرِ لهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164].

(الأعمَى) و(الأكْمهُ):

العمى: ذهابُ البصرِ من العينين كلتيهما، ورجلٌ عم إذا كان أعمى القلبِ، ورجلٌ عَمي القلب أي: جاهلٌ، والعَمَى: ذهابُ نظرِ القلبِ[1]. أمّا الأكْمَهُ؛ فهو الَّذي يولَد أعمى، فهو مقيَّدٌ بكونِه يولد مطموسَ العينِ[2]، أمّا الأعمى؛ فهو من ذهبَ بَصَرُهُ كُلُّهُ[3]، فالأعمى أعمُّ من الأكمهِ، وقوله تعالى: ﴿عَمِينَ﴾ جمعُ عم، وهو صفةٌ على وزن فعِل، بمعنى: عمى البصائر، أي: عَميت قلوبُهم عن معرفة الله تعالى[4]، فالسّياقُ ليس في حاسَّة النَّظرِ، بل في بصيرةِ القلب، وهذا يُعبَّر عنه بـ (عمٍ) لا بـ (كَمِهٍ).

الأعـمَـى: من كان مُبصِرًا قبْلَ العَـمَـى، أمَّـا الأكـمـهُ؛ فهو المولودُ أعْمَى

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عمى، عمي).
(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (كمه).
(3) الفيروزآبادي، القاموس: (عمي).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 113، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»